الفصل الثالث والأربعون

بنت الإخشيد

فصفق المعز فدخل الحاجب فقال: «أدخل الرجل الواقف خارجًا».

وأشار إلى أم الأمراء ولمياء بالتنحى إلى مجلس تقعدان فيه بحيث تريان وتسمعان ولا يراهما أحد.

ثم عاد الحاجب ومعه صاحب القافلة وهو كهل عليه لباس المصريين من العمامة والجبة وقد أخذ الاضطراب منه مأخذا عظيما لهول ذلك الموقف.

فقال له الخليفة: «لا تخف يا رجل وإنما نريد منك أن تصدقنا الخبر. قل من أنت؟».

قال: «أنا يا مولاي من أهل مصر».

قال: «ما هي صناعتك».

قال: «تاجر رقيق».

قال: «ما الذي جاء بك إلى هذا البلد».

قال: «جئت لأبتاع رقيقًا أحمله إلى مصر. وهي عادتي في كل عام أو بضعة أعوام آتى القيروان لهذه الغاية فأبتاع المولدات الحسان وأنصرف».

قال: «ولكن رسولنا يقول أن حالكم تدل على غنى وترف لا يعهده بتجار الرقيق الذين يفدون على القيروان».

فبانت البغتة في وجه الرجل عند هذا الاعتراض ولكنه قال: «نحن يا مولاي تجار رقيق كما قلت لكم فإنى لا أكذب».

قال: «هذا لا يكفى قل لنا السبب الذي أوجب مجيئكم في الفساطيط الفاخرة ومعكم الخيول المطهمة كأنما أنتم من رجال الدولة أو الأمراء».

قال: «السبب في ذلك يا مولاي أننا نبتاع الجوارى بأمر خاص ونحن ننفق على حساب مرسلنا».

فقال الخليفة: «لمن تبتاعون الجوارى. ومن هو مرسلكم أصدقنى وإلا فلا تنجو من القتل».

فخاف الرجل واصطكت ركبتاه وارتعدت فرائصه وقال: «إننا نبتاع الجوارى لمولاتنا ابنة الإخشيد صاحب مصر».

فضحك الخليفة والتفت إلى جوهر وهو يقول: «ألا ترى التلون في كلامه؟ يقول أنه يبتاع الجوارى الحسان لابنة الإخشيد ولو قال أنه يبتاعها للأخشيد نفسه لصدقناه» والتفت إلى الرجل وقال: «قل الصدق.. لماذا لم تقل أنك تبتاع الجوارى للأخشيد أو غيره من الأمراء هل خفت أن يكون عليك من ذلك بأس».

قال: «كلا يا مولاي بل أنا أقول الصدق. قد مر علي عدة أعوام وأنا آتى القيروان بأمرها لأبتاع لها الجوارى الحسان بالأثمان الباهظة».

قال: «ماذا تفعل بهن؟».

فتوقف الرجل عن الجواب وبان الارتباك في وجهه لكنه خاف السكوت فقال: «لتستمتع بهن».

فبغت الخليفة والقائد والحسين وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض فقال القائد: «تشترى الجوارى لابنة الإخشيد لتستمتع بهن هي؟».

قال: «نعم يا سيدي ... وهذا مشهور يعرفه أهل مصر لأنها كثيرًا ما تنزل سوق الرقيق في الفسطاط بنفسها على حمار فتساوم صاحب الرقيق على الجارية إذا أعجبتها وتشتريها لنفسها. وإذا كانت لا تجد هناك ما يعجبها من الجوارى الحسان تبعث بي في قافلة خاصة لهذه الغاية وتنفق في سبيل ذلك الأموال الطائلة».

فلما سمع المعز كلامه وصدق لهجته صدقه وهو مستغرب وأشار إليه أن ينصرف. فلما خرج الفت المعز إلى قائده وقال: «قد كنت منذ قليل أتردد في فتح مصر وأخاف جندها. وأما الآن فهان علي أمرها لأن بلدًا بلغ من أهله الترف إلى أن صارت المرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها لا يخشى بأسهم. لأن ذلك من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم إنما يلزمنا المال»[1] والتفت إلى لمياء.

[1] المقريزي ٣٥٢ ج ١.

فتقدمت أم الأمراء وأجابت عنها قائلة: «إن ابنتنا لمياء قد قصت علي خبر المال الذي أشارت إليه وهو مضمون وإنما يحتاج إلى نظر خاص».

فقال المعز: «هل ترين بأسا من التصريح به بين أيدينا وليس فينا غريب.. قولي يا لمياء قولي..».